السوسيولوجيا تبحث عن نفسها...!

قراءة في كتاب "الدخول إلى السوسيولوجيا ...حدود الكونية الأوروبية " لـجمال غريد

Sociology looking for itself… !
Read in Djamel Guerid's book
Entry into sociology - The limits of the European universal

تومي أم الخير

جامعة وهران 1 احمد بن بلة (الجزائر) ، toumi2000@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/17 تاريخ القبول: 2022/05/09 تاريخ النشر: 2022/06/11

الملخص:

يعد كتاب الدخول إلى السوسيولوجيا – حدود الكونية الأوروبية – لصاحبه الراحل البروفيسور جمال الدين غريد واحد من أهم المحاولات الجادة التي أرادت أن تحلل الواقع السوسيولوجي الراهن تحليلا نقديا على ضوء التغيرات الاجتماعية المتسارعة التي تعيشها مجتمعات المعمورة .

هذا الكتاب هو بمثابة دعوة للرجوع إلى العلم السوسيولوجي نفسه وبخاصة إلى النظرية الكونية التي يتضمنها هو أيضا دعوة إلى التفكير الجاد في مجتمعاتنا العربية واعادة النظر في السوسيولوجيا

استطاع غريد أن يخُط هندسة لمفاصل كتابه موزعة. على سبعة فصول، سنحاول في هذه المقالة الوقوف عندها من خلال التمعن في بعض معطياتها وتشريح بعض خلفياتها .

الكلمات المفتاحية :السوسيولوجيا، السوسيلوجيا الكونية ، السوسيلوجيا الغربية، الكونية الاوروبية ، الممارسة السوسيلوجية ، التقاليد السوسيلوجية ، سوسلوجيا الجنوب.

Abstract:

Introducing sociology- Limitations of the European Cosmopolitanism" byPr.Djamel Eddine Guerid is a best endeavour that analyses the present social facts critically in the lights of rapid social changes lived by both world .

This book is a tantamount to call for coming round the descipline of sociology and the cosmopolitan theory.However it invites to re-think about Arab societies and to re-examine the europian - born discipline of sociology which resulted from intellectual , industrial andpolitcal revolution.Pr Guerid organised the" Introducing Sociology- " in seven chapters.The present paper strives to explore the fundamentals and the background of that theory.

key words : Sociology, Cosmic Sociology, Western Sociology, European Cosmology, Sociological Practice, Sociological Traditions, Southern Sociology.

المؤلف المرسل: تومي أم الخير، **الإيميل:** toumi2000@hotmail.com

السوسيولوجيا تبحث عن نفسها...! قراءة في كتاب "الدخول إلى السوسيولوجيا ...حدود الكونية الأوروبية " وتداعياتها الواقعية في عالم اليوم للبروفسور عالم الاجتماع جمال الدين غريد.

---

1. **مقدمة:**

يمكن اعتبار كتاب " الدخول إلى السوسيولوجيا حدود الكونية الأوروبية .. وتداعياتها الواقعية في عالم اليوم " الذي صدر في 2013 للأستاذ البروفسور وعالم الاجتماع الجزائري الراحل جمال الدين غريد (1943 بسكرة–2013 وهران) مرجعا ابستيمولوجيا لكل مهتم بتخصص السوسيولوجيا. (GUERID ;2013, p235) تكمن القيمة العلمية لهذا المُؤَلف في كونه احد الأعمال العلمية في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية المُلتزمة والمُكرسة لفهم السوسيولوجيا.

تعتلي هذا الكتاب معلومات قيمة أراد لها المُؤلف أن تكون ذات سبق غير مسبوق اتسمت بالبدء منذ سنوات الإنتاج الفكري لتتجه نحو سنوات الحصاد الفكري والممارسة الذاتية بما آمن به من مبادئ.

بأسلوب ولغة في غاية الجلاء والعمق وبجرأة ودقة في استعمال أقسية لغوية للتعبير عن أدق المفاهيم هذا ما يجعله يحتل مرتبة مهمة ضمن قائمة السوسيولوجيين الجزائريين المتميزين. نحن نعرف أن الباحث جمال غريد خصَ للبحوث السوسيولوجية دراسات غاية في الأهمية ميزها استعمال العقل في الكشف عما يجعل التناول منطقيا مؤطرا ويفتح المسالك لعيار النصوص بهذا المقياس. ومما يُحتسب لجمال غريد في هذا المُؤَلف انه نجح في التوصل إلى تحليل وتفسير مُتفرِّد وعميق بروح نقدية نفاذة تستثمر تراكما معرفيا يغطي مساحة واسعة من الحقول العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ببراعته المعهودة في الكتابة استطاع جمال غريد أن يخُط هندسة لمفاصل كتابه "الدخول إلى السوسيولوجيا ..حدود الكونية الأوروبية " موزعة على سبعة فصول : عنون الفصل الأول بـ" السوسيولوجيا : في البدء كان الشك حول السوسيولوجيا مجددا " ، وكان عنوان الفصل الثاني " أوروبا والثورات "، الفصل الثالث خُص للحديث عن :" الثقافتان السوسيولوجيتان الإثنتان "، وتحدث في الفصل الرابع عن :" الآباء المؤسسون: دركايم وفيبر وباريتو "، أما الفصل الخامس فقد عُنون بـ" السوسيولوجيا – علم يبحث عن نفسه "، فيما حمل الفصل السادس عنوان" إشراق وبؤس السوسيولوجيا " ، وآخر فصل من الكتاب جاء عنوانه كالتالي :" الدخول إلى السوسيولوجيا ... الأشكال البائسة "

من اللافت أن جمال غريد أعلن بالتصريح وبالتلميح معا أن سبب اختياره موضوع هذا الكتاب هو دعوة الباحثين السوسيولوجيين من الغرب والجنوب للمشاركة في مهمة إعادة التفكير في السوسيولوجا كعلم وممارسة. فمساهمة الباحث الغربي حسبه ليست هي مساهمة الباحث

"الجنوبي" والمساهمتان كلاهما تؤديان، لا محالة، إلى دفع التفكير حول السوسيولوجيا خطوات إلى الأمام وربما حتى إلى إعادة تأسيسها.

يشكل الكتاب قراءة معاصرة لجوانب من السوسيولوجيا، تطمح لتقديم صورة عامة عن وضعية السوسيولوجيا الراهنة وتاريخها.

أكيد انه من الصعب تلخيص محتويات الكتاب من خلال خطاطته أقساما وفصولا لكننا نسعى التمكين من المفاتيح التي يمكن بها القارئ المهتم بهذا الشأن أن يلج إلى صلب الطرح العلمي لإشكالية الأساس في الكتاب. نعمد في هذه القراءة إلى جعل المقروء معاصرًا لنفسه (أي فصله عنا) من جهة، ومعاصرًا لنا (أي وصله بنا) من جهة أخرى.

في مقدمة كتاب " الدخول إلى السوسيولوجيا حدود الكونية الأوروبية" يُعلن صاحب الكتاب جمال غريد أن البحث عن الحقيقة كما يقول الفلاسفة أو إنتاج المعرفة كما يقول العلماء يتطلب تجاوز الباحث لنفسه ولذاتيته ولمصالحه. ليس لنا أن نضحك أو نبكي ، يقول "سبينوزا"، بل أن نفهم. أما "بورديو" الذي يذكر فكرة "سبينوزا "في إفتتاح كتابه "بؤس العالم" (1993) فهو الذي وضع موضع التنفيذ، حياته كلّها، هذا الموقف الإبستمولوجي في ما يسميه في هذا الكتاب، مشروعه التوضيعي.

يعترف الكاتب بأن البحث عن الحقيقة لا يخلو من مخاطر لأن الباحث يجد نفسه في وضعية "الواشي" (بورديو) بالنسبة لمجتمع أو مجموعة تكون مصلحتها في "ترك البئر بغطائه " كما يقول المثل الشعبي الجزائري. فالفهم يعني نزع الحجاب أو الغطاء الذي يحول دون وصول الذات العارفة إلى موضوع المعرفة وهذا الموضوع يكون أكثر مقاومة للفهم عندما يتعلق بالمجتمع لأن البعد الضروري الذي ينبغي أن يلتزم به الباحث يكون هنا أمرا مستحيل المنال.

يعتبر الكاتب أن مقارنة السوسيولوجيا الغربية بالسوسيولوجيا العربية بمصر والجزائر على وجه التحديد لا تخلو من خطورة لأن الباحث يشتغل حول مادة سريعة الالتهاب وقد اعترف في السياق ذاته أن الذين إختاروا طريق الصعوبة، طريق البحث والكتابة قد عاشوا هذه الحالات التي زادتها الوضعية الجزائرية صعوبة وتشعبا وربما هذا هو الذي يفسر عزوف الجزائريين عن الكتابة.

مشرع كتاب الدخول إلى السوسيلوجيا جاء مُختلف يُؤكد الكاتب لأنه لم يتعرض للأحداث ولكنه جاء تحليلا لما هو أساس هذه الأحداث وبصفة أدق لما هو أساس المجتمع الجزائري اليوم. يلح الكاتب على فكرة ان امتياز البحث الميداني هو في إظهار عدم التطابق بين المفهومات النظرية والوقائع الإجتماعية وقوة التحقيق هي التي ترغم الباحث، أحيانا بدون شعور منه، أن يدخل في تناقض مع نفسه ومع مذهبه العام وحتى مع مشروع بحثه الأوّلي

هي أنه يرجع إلى العلم السوسيولوجي نفسه وبخاصة إلى النظرية الكونية التي يتضمنها. وبصفة أدق فإن هذا التفكير الذي يدور حول قضايا الدخول إلى الحيز السوسيولوجي تتركز على المسائل التالية:

- لماذا صار من الضرورة أن نفكر في بلداننا وأن نعيد التفكير في السوسيولوجيا، هذا العلم الأوروبي؟.
- لماذا ينبغي البدء بقراءة نقدية معادة لسوسيولوجيات الأمس واليوم؟. ولماذا يجب القيام بدراسة نقدية للمحاولات المختلفة التي إستهدفت، في بلداننا، الدخول إلى السوسيولوجيا؟.

يبقى أن نشير إلى أن المرحوم جمال غريد اعترف في بداية تقديمه لكتابه " الدخول إلى السوسيولوجيا " بأنه بمثابة الأخ التوأم للكتاب الذي أصدره نهاية 2007، " الإستثناء الجزائري (GUERID, 2007 في مطلع الكتاب الأول، اختار قولين لإثنين من عمالقة الفكر، الفيلسوف "سبينوزا" Spinosa (1632-1677) وعالم الإجتماع "بيار بورديو " Pierre Bourdieu (1930-2002).

1- 2. الشك حول السوسيولوجيا :

تضمن الفصل الأول من الكتاب الذي حمل عنوان: " السوسيلوجيا : في البدئ كان الشك حول السوسيلوجيا مجددا" إعترافا مفاده أن الدخول إلى هذا العلم يبدو أكثر صعوبة لأن الأمر لا يتعلق لا بالتقنيات ولا بالاقتصاديات وإنما بالثقافة. ، يعتقد الكاتب اعتقادا راسخا أن الممارسة السوسيولوجية في بلداننا ليست أمرا عاديا لان الدخول إلى السوسيولوجيا نفسه لم يكن عاديا، إذ لم يكن في يوم من الأيام محل تفكير وتنظير بدليل أننا عرفنا، في الماضي، الكثير من الخيبة والإخفاق ولذا أضحى لزاما علينا أن نفكر ونجتهد أكثر حتى نوفر لمشاريعنا المستقبلية كل أسباب النجاح. " ... وكما يجب أن نلم إلماما كاملا بمنظومة الـ OMC المعقدة قبل أن نتقدم بطلب للدخول، فيها يجب أيضا أن نكون على دراية عميقة بمنظومة السوسيولوجيا المتشبعة والمحيرة قبل أن نفكر في طلب الانتساب إليها".

يشير المؤلف إلى فكرة أن الدخول إلى السوسيولوجيا صار أمرا مقلقا لأن بعض " أصحاب الدار" يقولون لنا إنهم بصدد التخلي عن السوسيولوجيا التاريخي (GUERID, 2007) بينما نحن لا نريد شيئا آخر، سوى التأمل فيها شيئا ما انطلاقا من هويتنا وواقعنا وطموحنا. الخطر المحدق الآن هو أننا نبذل الجهود المضنية لنعدَ أنفسنا لدخول بيت قد هجره أصحابه وصار طلالا لا حياة فيه .

و يشدد أيضا على أن الدخول إلى السوسيولوجيا يصطدم بتعقيدات ترجع أساسا إلى حالة الغموض والخلط السائدة اليوم فيها. والملاحظ أن السوسيولوجيات كثيرة لا حصر لها وصار لكل سوسيولوجي تقريبا سوسيولوجيته. لكن مسألة كثرة الاتجاهات والمدارس السوسيولوجية تأتي المرتبة الثانية من حيث الأهمية مقارنة بالوهم السائد الذي يقول بوجود سوسيولوجية واحدة ووحيدة، وبصفة أساسية، فنحن صرنا لا ندري أين ندخل لأننا نجد أنفسنا إما أمام فراغ ("السوسيولوجية هي مجرد كلمة" حسب بول فين Paul Veyne) وإما أمام فائض (" عدد السوسيولوجيات يساوي عدد السوسيولوجيين" على حد قول البعض)، وهكذا أصبح من الضروري، في البداية، توضيح الأمور والرؤى قبل كل محاولة للدخول إلى السوسيولوجيا.

تساءل المؤلف وبالكثير من الإصرار حول شروط إمكانية وشرعية التحليل السوسيولوجي في المجتمعات غير الغربية. وفي أساس هذا التساؤل أربعة أسباب رئيسية، السبب الأول يتعلق بالممارسات السوسيولوجية التي تمت في بلدان الجنوب والتي ينعتها الكثيرون بغير المقنعة. الثاني يتعلق بالتجاربه البحثية (الشخصية) والتي تتجسد في كتابه "الإستثناء الجزائري"(2007). ليؤكد على صعوبة هذه التجارب ، بمعنى صعوبة مقارنة الميدان الجزائري على ضوء المفهومات السوسيولوجية المعروفة. الثالث هو موقف العديد من المفكرين الغربيين الذين يذهبون إلى أن العلم و ظواهر أخرى هي من ابتكار العبقرية الأوروبية دون سواها. أما السبب الرابع، فهو يبدو كجزء لا يتجزا أو كحالة خاصة، من السؤال الكبير الذي أرَق حياة المثقفين العرب على إختلاف مآربهم ومشاربهم منذ بداية النهضة العربية وهو السؤال المتعلق بالعلاقة بالكوني (Universel) الذي نعرف اليوم، وبخاصة بعد أعمال "فالرشتاين" Wallerstein أنه فقط الكوني الأوروبي.

ولكل هذه الأسباب فان الممارسة السوسيولوجية في بلداننا ليست أمرا عاديا لان الدخول إلى السوسيولوجيا نفسه لم يكن عاديا، اذ لم يكن في يوم من الأيام محل تفكير وتنظير.

بمقابل ذالك يؤمن المؤلف بفكرة أن مهمة إعادة النظر في السوسيولوجيا لم تنته بعد وأنه يكون من الأهمية بمكان أن يشارك في هذه المهمة باحثون ينتمون إلى بلدان غير غربية. فمساهمة الباحث الغربي ليست هي مساهمة الباحث "الجنوبي" والمساهمتان كلاهما تؤديان، لا محالة، إلى دفع التفكير حول السوسيولوجيا خطوات إلى الأمام وربما حتى إلى إعادة تأسيسها.

وقد فرض هذا المشروع نفسه بإلحاح عندما انتاب الباحثين "الجنوبيين" شعور عميق ومستمر بعدم الرضا إزاء ممارستهم السوسيولوجية. وهذا ما حدث فعلا له شخصيا عندما شرع، اعتمادا على المفهومات "الموجودة"، في تحليل المجتمع الجزائري. وقد كان لهذه

السوسيولوجيا تبحث عن نفسها...! قراءة في كتاب "الدخول إلى السوسيولوجيا ...حدود الكونية الأوروبية " وتداعياتها الواقعية في عالم اليوم للبروفسور عالم الاجتماع جمال الدين غريد.

الوضعية تأثيراتها السلبية من تأخر و تردد وتيهان وفي نهاية المطاف يعترف بأنه وجد نفسه أمام الخيار التالي: إما إدخال الظواهر المعاينة، عنوة"، من الخانات النظرية الموجودة والجاهزة للاستعمال وإما، انطلاقا من هذه الظواهر، التساؤل حول جدارة ومشروعية المفهومات السائدة.

يخلص الكاتب في نهاية الفصل الأول للقول أن الدخول إلى السوسيولوجيا يتطلب كشرط قبلي التعرف على جميع السوسيولوجيات، كيف كانت بالأمس وكيف أصبحت اليوم.

1- أوروبا والثورات:

يُشرَح الكاتب في الفصل الثاني المعنون بـ "أوروبا والثورات" كيف أدت الثورة الصناعية إلى بروز ذهنية جديدة هي الذهنية الصناعية أو الذهنية الرأسمالية وقد أثرت هذه الذهنية بدورها على النظام الجديد. وقد تطورت هذه الذهنية من جراء تحرر الإنسان من إكراهات التقاليد والجماعة ومن جراء فردنته (individuation) وإنخفاض من نسبة الأمية والبدء بتعميم التعليم. ومن هنا يصبح الإنسان مركز المجتمع الجديد وكما يقول "ديكارت" "سيد ومالك الطبيعة" وفي ظل النظام الرأسمالي الذي يرتكز على الربح صارت الغاية هي التي تبرر الوسيلة (ماكيفال). وأصبحت القيم القاعدية هي: العقل، التفاؤل، أو الإيمان في التطور، الفردانية ، وقد امتدت هذه الظاهرة إلى كل قطاعات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. لنرى بعض الأسئلة في مجالات مختلفة: العلوم والفنون والآداب والذهنيات واللغة.

أدت الثورة الصناعية حسب تحليل البروفسور المرحوم غريد إلى بروز ذهنية جديدة هي الذهنية الصناعية أو الذهنية الرأسمالية وقد أثرت هذه الذهنية بدورها على النظام الجديد. وقد تطورت هذه الذهنية من جراء تحرر الانسان من إكراهات التقاليد والجماعة ومن جراء فردنته (individuation) وإنخفاض من نسبة الأمية والبدء بتعميم التعليم. ومن هنا يصبح الانسان مركز المجتمع الجديد وكما يقول "ديكارت" "سيد ومالك الطبيعة" وفي ظل النظام الرأسمالي الذي يرتكز على الربح صارت الغاية هي التي تبرر الوسيلة (ماكيفال). وأصبحت القيم القاعدية هي: العقل، التفاؤل، أو الايمان في التطور، الفردانية ، وقد امتدت هذه الظاهرة إلى كل قطاعات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. لنرى بعض الأسئلة في مجالات مختلفة: العلوم والفنون والآداب والذهنيات واللغة.

في مجال العلوم حدثت أحداث في غاية الأهمية وعرفت العلوم مع الروسي "لوباشافسكي" Lobatchevsky(1793-1856) ، والألماني "ريمان" Riemann(1826-1866) وتشكلت الفيزيولوجيا مع أمثال "لويس باستور" Louis Pasteur(1822-1896) و"كلود دوبونار"Claude Bernard(1813- 1878)، والبيولوجيا مع النظرية التطورية

لـ"داروين "Darwin(1809–1882) والكيمياء العصوية مع "بارتلو"Berthelot(1827–1907) ؟ وتجدر الإشارة أيضا إلى تقدم الفيزياء مع المغناطيسية الكهربائية واكتشاف أشعة X (في عام 1895 والراديوم من قبل "بيير Pierre وماري Marie كوري Curie " (في عام 1898).

لم تمس المستجدات العلوم والتقنيات فقط –يؤكد المؤلف– بل هي امتدت كل المجالات الفكرية. فنجم عن تطور الصناعة والعلم تراجع الفكر الروحياني وتقدم الفكر المادي والعقلاني وقد عرفت الفنون والآداب انتصار الواقعية على الرومانسية فكان الواقعيون وعلى رأسهم "جوستاف فلوبر" Gustave Flaubert (1821–1880) يرفضون إطلاق العنان للخيال كما كان يفعل الرومانسيون بل التزموا وصف الواقع المعاش بدقة وانطلاق معرفة هذا الواقع، وتغلب جنس الرواية على جنس الشعر. وفي الفلسفة ظهر وتطور اتجاه جديد، العلمانية (scientisme) الذي لا يثق إلا في العلم الذي ينبغي أن يكون في مركز القيادة ، ففي فرنسا أراد "تين" Taine (1828–1893) أن يطبق العلوم الطبيعية على العلوم الأخلاقية وفي انجلترا أراد "سبنسر" Spencer (1820–1903) أن يبني الفلسفة على أساس نظرية التطور الداروينية وقد عرفت اللغة ذاتها تحولات إما ببروز مفردات جديدة وإما بإعطاء معنى جديد لمفردات قديمة، لقد بينا سلفا أمثلة كثيرة على هذا التحول.

وبفعل القيام في النظام الجديد طالت الأزمة على كل الأصعدة التقليدية وفككت العائلات وعممت العمل الصناعي ومن هنا نشأت ضرورة مشروعة لفهم ما صار عليه التنظيم الاجتماعي وكذا الحياة.

وجدت السلطة الجديدة التي مازالت ضعيفة وبعيدة عن الاستقرار –حسب المؤلف– نفسها وهي في مواجهة ثلاث مشاكل حاسمة، مشكلة داخلية بالنسبة للمجتمع الصناعي نفسه، ومشكل ثالث خارج عنه لكنه وثيق الصلة به، المشكل الأول هو: ما العمل حتى يستقر وضع هو في تحرك حر منذ 1793 خصوصا؟، المشكل الثاني هو: كيف تكون مراقبة الطبقات الخطيرة، أو طبقة المجرمة" والحيلولة دون وقوع أي انزلاق؟، أما المشكل الثالث، فيجوز طرحه كالتالي: "وضمان ديمومة استغلالها واستغلال مواردها وتجريدها من كل سلاح ماديا ومعنويا.

يتوسع المؤلف في عرض الأفكار المتعلقة بالعوامل التي ساهمت في وجود العلوم الاجتماعية في الغرب مؤكدا أنها جاءت كاستجابة لاهتمامات الطبقات المهيمنة الجديدة، ولهذا فهي قد واكبت تطور المجتمع الصناعي وتطور نخبه. وبالنسبة للعلم الاجتماعي الذي يهمنا هنا أي السوسيولوجيا، فهي قد ظهرت بأشكال مختلفة وكإجابات مرتبة من حيث درجة الاستعجال.

السوسيولوجيا تبحث عن نفسها...! قراءة في كتاب "الدخول إلى السوسيولوجيا ...حدود الكونية الأوروبية " وتداعياتها الواقعية في عالم اليوم للبروفسور عالم الاجتماع جمال الدين غريد.

1- ما "قبل السوسيولوجيا" أساسا مع "سان سيمون" و"أجست كونت" كانتقال من الفلسفة إلى السوسيولوجيا، وفي هذه الفترة كانت المسألة الأولى هي مسألة نظام الحكم الذي ينبغي إقامته.

2- البوبرولوجيا (علم الفقر) أو التحقيقات الاجتماعية للمساعدة في فهم هذه الإنسانية الجديدة، الطبقة العاملة والمساهمة في مراقبتها يتعلق الأمر إذن بالفهم من أجل المراقبة.

3- المادية التاريخية كتعبير عن مصالح ومطامع "الطبقة الأكثر عددا والأكثر فقرا" "سان سيمون".

4_السوسيولوجيا للمساعدة على فهم الأزمة الجديدة اقتراح العلاج الفعّال لتجاوز الأزمة، هذا ما يقوله "دركايم" الذي يقترح السوسيولوجي كطبيب للمجتمع المريض.

2_السوسيولوجيتان الاثنتان :

في الفصل الثالث من كتاب الدخول إلى السوسيولوجيا يُشرح المؤلف كيف ساهمت الثقافتان الاشتراكية والسوسيولوجية البرجوازية في تعدد القراءات والاتجاهات والمدارس، وكذا التثمين المفرط للتاريخ النظري والاستنقاص من البدايات الإمبريقية. الوضعية هذه صعبت – يقول الكاتب- من مهمة "مشروعنا في الدخول إلى السوسيولوجيا"، وهو المشروع الذي يتوقف حسب المؤلف على شرط أولي وهو المعرفة الحقة بهذه المنطقة. وهذا يعني أنه ينبغي تجاوز الأفكار العامة والمُبهمة والتأكد من الأرضية التي نضع عليها أقدامنا.

كرّس المؤلف هذا الفصل وكذا الفصليين اللاحقين لإعادة قراءة وتفحص ما هو موجود. أي ما اصطلح على تسميته بالسوسيولوجيا من جهة والمادية التاريخية من جهة أخرى. وعلى هذا الأساس أصبح من الممكن أن يحسب للأمور حسابها وأن يتم الاختيار على معرفة ودراية.

ويعتقد الكاتب انه في إطار حقل الثقافات السوسيولوجية وفي ظل الأزمات والطرق المسدودة إن المطلب صار العودة إلى تقاليد المؤسسين الكبار. ففي حقل المادية التاريخية أخذت هذه العودة شكل القراءة الإبستمولوجية لعمل ماركس المركزي: "رأس المال". وقد تبنّى هذه القراءة التي بادر بها "ألتوسر" وتلامذته عدد كبير من المفكرين سواء في اتجاه التأويل "الألتوسيري" أو في محاربته. ومهما يكن من أمر، فإن فضل هذه القراءة كان في وضع عمل "ماركس" المركزي في المقدمة ومحاوله إبراز منطقة والعمل على الانتقال به من وجود عملي إلى وجود نظري. وكان لها فضل أكبر وهو يتمثل في الدفع إلى المرور من الموقف الإبستمولوجي "قراءة رأس المال" إلى الموقف العلمي "قراءة الرأسمالية" ولكن هذا المرور يبقى فعل أقلية لأن مازال سائدا هو القراءة الفلسفية للماركسية.

هذه العودة هي أيضا قائمة في حقل السوسيولوجيا البرجوازية. ولم يكن الثلاثي "دركايم" و"فيبر" و"باريتو" قد نعم كما ينعم هذه الأيام بالإستشارة والدراسة والحفاوة. فلا تحصى الدراسات (كتب– أطروحات – مقالات – ملتقيات) التي تخرج كل يوم والتي يشكل مجرد عدها تحديا يتجاوز طاقة الباحثين.

في جانب تحليلي آخر من ذات الفصل يركز المؤلف على فكرة أن الباحثين الكلاسيكيين قد تطرقوا بإسهاب كبير إلى الأصول الفلسفية للسوسيولوجيا. وحتى كبار المؤسسين أنفسهم فقد كانوا مهتمين بإبراز جديد لعطائهم ولم يكترثوا بأسبقية البحوث الميدانية. وعلى سبيل المثال يقول "دركايم " : "بينما كانت السوسيولوجيا تتشكل فهي قد كانت تنفصل شيئا فشيئا على ما كان يُسمّى بصفة غير ملائمة بالعلوم السياسية التي هي مزيج من التأملات الهجينة والتأملات النظرية ومزيج من العلوم ومن الفنون والتي يعتقد الناس أحيانا ولكن خطأ أنها هي العلم الإجتماعي" (GUERID,2013, p21)

من جانب آخر الكتاب إلى انه بفعل القيام في النظام الجديد طالت الأزمة على كل الأصعدة التقليدية وفككت العائلات وعممت العمل الصناعي ومن هنا نشأت ضرورة مشروعة لفهم ما صار عليه التنظيم الاجتماعي وكذا الحياة.

وجدت السلطة الجديدة التي مازالت ضعيفة وبعيدة عن الاستقرار نفسها وهي في مواجهة ثلاث مشاكل حاسمة، مشكلة داخلية بالنسبة للمجتمع الصناعي نفسه، ومشكل ثالث خارج عنه لكنه وثيق الصلة به، المشكل الأول هو: ما العمل حتى يستقر وضع هو في تحرك حر منذ 1793 خصوصا؟، المشكل الثاني هو: كيف تكون مراقبة الطبقات الخطيرة، أو طبقة المجرمة" والحيلولة دون وقوع أي انزلاق؟، أما المشكل الثالث، فيجوز طرحه كالتالي: "وضمان ديمومة استغلالها واستغلال مواردها وتجريدها من كل سلاح ماديا ومعنويا.

يؤكد المؤلف على النظرة التي تلح على الأصول الفلسفية وتهمل الأصول الإمبريقية مازالت قائمة وسائدة حتى اليوم وهي التي تلحظها في "المداخل" و"التمهيدات" للسوسيولوجيا الصادرة في السنوات الأخيرة. وهكذا فإن تاريخ السوسيولوجيا قد صار تاريخ الفكر السوسيولوجي. ففي كتاب التقاليد السوسيولوجية" (1966 و1984) بالنسبة للترجمة الفرنسية) يذكر المؤلف "روبرت نيسبات" وينقد الطريقتين الإثنتين في مقاربة تاريخ هذا الفكر. الأولى هي عبارة عن تقديم لـ "مفكرين غذت كتابتهم تاريخ الفكر". أما الثانية فقد اختارت "الاهتمام لا بالرجال وإنما بالمنظومات والمدارس والمذاهب (GUERID,2013, p93)

خلص مؤلف كتاب الدخول إلى السوسيولوجيا في آخر هذا الفصل إلى أن الدور الأول الذي لعبته الأبحاث الإمبريقية، وقد أتت هذه الأبحاث استجابة لمطالب اجتماعية ملحة منها "أن الهمجيين الذين يهددون المجتمع ليسوا في الكوكاز ولا في سهوب التتر وإنّما هم في ضواحي

مدننا الصناعية (...) هذا هو الخطر الذي يتربص بالمجتمع الحديث ومن هنا قد يخرج الهمجيون ويقضون عليه" (GUERID,2013, p102) وقد ظهرت هذه الأبحاث كمجهود من أجل المعرفة ومن أجل العمل. أما السوسيولوجيا "الكبرى" التي برزت بعد ذلك فقد كان بإمكانها النظر إلى الأمور بشئ من التجرّد لأن الخطر صار معروفا وميكنزمات التحكم فيه باتت مجربة وقابلة للاستعمال.

1- الآباء المؤسسون: دركايم وفيبر وباريتو :

ركن المؤلف في رابع فصل من الكتاب إلى استنطاق أعمال الآباء المؤسسين دوركايم ،فيبر وباريتو، واعتبر أن أبحاث هؤلاء ظهرت كمجهود من أجل المعرفة ومن أجل العمل وقد اتسمت هذه الأعمال بخاصية تبنيها ميكانيزمات التحكم في هذا العلم السوسيولوجي الذي باتت مجربة وقابلة للاستعمال. سمحت بحوث هؤلاء للتأمل حول ما آل إليه المجتمع وفي نفس الحركة إبطال تأمل الخصم الماركسي.

يشرح المؤلف هذا الموقف ويؤكد اشتراك السوسيولوجيون الثلاثة في انشغال أساسي هو المساعدة على الخروج من الأزمة والمساهمة في النهوض بالمجتمع وفي استقراره. ويشرح "فرنكو فراروتي" جيّدا هذا الانشغال عندما يكتب: "بالنسبة للسوسيولوجيين التعميميين، المجتمع بحاجة إلى تحليل كواقع شامل وقانون هذا الواقع الشامل هو قانون التطور، التطور الضروري، الأحادي والذي لا رجعة فيه. (...) وباسمه فهم يطالبون بإعادة تنظيم كلية للمجتمع" (GUERID,2013, p107)

عاش وكتب كبار السوسيولوجيا الثلاثة، "دركايم" و"فيبر" و"باريتو" في نفس الفترة الزمنية (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) وفي نفس الحيَز الجغرافي (أوروبا الغربية) ومن الطبيعي، إذن ، أن تكون لهم ردود متقاربة إذ كانوا يواجهون نفس الوضعية. نقطة انطلاقهم كانت في الأزمة وفي المجهود التأملي قصد الخروج منها والمساهمة في إعادة بناء المجتمعات الأوروبية. وهذا ما يؤكده "أرون": "إن السوسيولوجيا كما أعدَها مؤسسو القرن الماضي لكانت، في الوقت ذاته تأويلا وتبريرا ودفاعا عن المجتمع الحديث".(GUERID,2013, p108) وهذا ما يوضحه "فرانسوا بوريكو" Bourricaud عندما يقول "إن السوسيولوجيين الكلاسيكيين كانوا يعتبرون أنفسهم مؤهلين لتشخيص الداء وتقديم العلاج". وبصفة أعم، يرى "بلنديي" Balandier "أنهم تخصصوا في إنتاج الدلالات والمعاني وهذا بالضبط هو تعريف وظيفة الثقافة العضوية".

يشترك السوسيولوجيون الثلاثة حسب المؤلف في انشغال أساسي هو المساعدة على الخروج من الأزمة والمساهمة في النهوض بالمجتمع وفي استقراره. ويشرح "فرنكو فراروتي"

جيّدا هذا الانشغال عندما يكتب: "بالنسبة للسوسيولوجيين التعميميين، المجتمع بحاجة إلى تحليل كواقع شامل وقانون هذا الواقع الشامل هو قانون التطور، التطور الضروري، الأحادي والذي لا رجعة فيه. (...) وباسمه فهم يطالبون بإعادة تنظيم كلية للمجتمع. (GUERID,2013, p108)

لاحظ المؤلف ، في أعمال كبار السوسيولوجيين ثلاث سمات مركزية وهي موجودة أيضا في التحقيقات الإجتماعية. السمة الأولى هي في المناهضة الحازمة للإشتراكية والتي تأخذ شكل مناهضة الماركسية. الثانية هي في الثقة الكبرى في العلم وفي التطور اللامتناهي الذي ينجم عنه وفي هذا الجانب فهم يظهرون كنتاج مرحلتهم. ويحدث أن تنقلب هذه الثقة إلى علموية scientisme (إفراط في إمكانيات العلم) كما كان الحال بالنسبة إلى "دركايم" الذي كان يعتقد أنه يستطيع تأسيس أخلاق على قاعدة العلم. ومن هذا المنطلق فإن الثلاثة حاولوا الخروج من الفلسفة الاجتماعية ومن الفلسفة السياسية و"فبركة" علم السوسيولوجيا، على صورة وعلى شاكلة العلوم الطبيعية. أما السمة الثالثة، فهي في الأولوية الممنوحة للسياسي. وعلى أساس ذالك يمكن التأكيد على ميول هؤلاء وإن كان مكبوتا للإنتقال إلى السياسة العملية. لا شك أن في أعماق كل واحد منهم رغبة أكيدة وجامحة في إصلاح مجتمع متأزم ولعب دور في إعادة بنائه.

خلص المؤلف في نهاية هذا الفصل إلى نتيجة مفادها أن اهتمام دوركايم، فيبر وباريتو بالمجتمع نابع عن اهتمامهم بالسياسة، والتفاتهم لسوسيولوجيا كان بسبب فشلهم في التموقع في السياسة النشطة. عجزهم على إيجاد موقع قدم في السياسة لتسيير المدينة و التحول إلى سياسيين، دفعهم للانشغال بدراسة المجتمع واختراع السوسيولوجيا. قوة السوسيولوجيا عند الثلاثة الكبار تكمن في سموها ، لكن بعد رحيلهم فقدت بريقها و سموها وأصبحت تنتج أعمال عادية على العموم.

2- السوسيولوجيا علم يبحث عن نفسه :

"السوسيولوجيا علم يبحث عن نفسه" كان هذا العنوان الذي اختاره المرحوم جمال غريد لخامس فصل من كتاب وفيه طرح وبكل قوة في التحليل كيف أن الشك والحيرة تلاحقان السوسيولوجيا كعلم.

ليبقى بشهادة كبار السوسيلوجيون أنفسهم "علم منشغل بقضية اعترافه العلمي ومدفوع دوما إلى التساؤل حول شروط علميته الخاصة وفي هذا البحث القلق عن ضمانات وتأمينات فهي تتبنَى بسهولة العلامات الأكثر بروزا وسذاجة للمشروعية العلمية ,GUERID,2013) p134) ويلاحظ نفس المؤلفين أنه ليس من الصدفة في شيء إذا كانت علوم الطبيعة تتحدث

عن نتائجها وعلوم الإنسان تتحدث عن مناهجها. كما يقول" هنري بوانكري" Henri Poincaré (GUERID,2013, p153).

وبالفعل فقد إستغرب " بوانكري" هذه الوضعية : "تقترح كل أطروحة في السوسيوولوجيا منهجا جديدا الذي لا يجد الدكتور الجديد حرجا في عدم تطبيقه ولذا فإن السوسيولوجيا هي العلم الذي يتوفر على أكثر المناهج وأقل النتائج". وفي كتابه "ثمانية عشر درسا حول المجتمع الصناعي"(1962) يحاول "ريمون أرون" أن يقترح تفسيرا: "السوسيولوجيا يبدو وكأنها تتميز ببحث دائم عن نفسها.

يعتقد المؤلف انه بات كل شيء يدل على أن هذه العودة التأملية للسوسيولوجيين ليست لعبة ولا محاولة لصرف الأنظار ولا هروبا إلى الأمام. هي ليست شيئا آخر سوى شرطا من شروط بقاء وتطور هذه المادة. ويقول" ...أنا أدرك أن هذه المسألة تطرح نفسها بصفة دورية وأنه ليس من الممكن عدم طرحها غير أنها تطرح نفسها آخذة في كل مرة شكلا مختلفا طبقا للمرحلة التاريخية و الوضعية الاجتماعية – الثقافية. وتطرح المسألة نفسها علينا بإلحاح أشد، نحن الذين ننوي الدخول إلى السوسيولوجيا كما يُدخل إلى عالم الآخرين أي حضارة الغرب التي لا تمثل السوسيولوجيا إلا جزءًا يسيرا منها "" (GUERID,2013, p 161)

ومن ناحية أخرى فإن السؤال لماذا السوسيولوجيا يطرح نفسه أيضا بسبب الفوضى العارمة السائدة في هذا الحقل وبسبب "الحروب الأهلية" الدائرة فيه. يبدو وكأن السوسيولوجيين قد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

ينبغي الاعتراف يؤد المؤلف مرة اخرى في هذا الفصل بأن السوسيولوجيا هي دوما في تساؤل حول نفسها وربما يكون ذلك طريقتها في الوجود. هذا يعني أن السوسيولوجيا ليست علما كسائر العلوم وإن لم تكن كسائر العلوم فسبب ذلك هو أن الآخرين هم الذين حددوا ، للجميع ، معايير العلمية.بكلمات أخرى لا يجوز أن نطلب من السوسيولوجيا أن تدخل في معايير علمية أُعدت انطلاقا ولعمل علوم أخرى.

صحيح إن السوسيولوجيا ما انفكت تتساءل حول نفسها وتطرح مسألة مصداقيتها وحتى مسألة مشروعيتها. يكفي أن نذكر العدد الهائل من الملتقيات والأيام الدراسية المنظمة في كل أرجاء العالم حتى نقتنع بذالك . وقد اعطى المؤلف مثالا عن المنطقة العربية التي هي بعيدة من أن تكون في مقدمة المناطق من حيث التفكير والإنتاج الثقافي عموما والإنتاج السوسيولوجي خصوصا فإنه من الممكن أن نذكر وليس على سبيل الحصر الملتقيات التالية:

الجزائر (1973) حول "تطوير السوسيولوجيا في الوطن العربي، القاهرة (26–28 فبراير 1983) حول إشكالية العلوم الاجتماعية في العالم العربي، أبو ظبي (25–28 أفريل 1983

نحو سوسيولوجيا عربية، الكويت (8–11 افريل 1984) السوسيولوجيا و مشاكل الإنسان العربي المعاصر، وهران (28،26 ماي 1984)"العلوم الإجتماعية اليوم"، تونس (25–28 يناير 1985) نحو سوسيولوجية عربية، وهران (4–5–6 ماي 2002) السوسيولوجيا والمجتمع في الجزائر، بيروت (17–19 ديسمبر 2009) أي مستقبل للسوسيولوجيا في العالم العربي.

وعادة ما تهدف هذه الملتقيات لا إلى مناقشة نتائج أبحاث وإنما إلى التساؤل حول علمية السوسيولوجيا و بصفة أدق حول "هويتها" و مشروعيتها. هي ممارسة لا نهاية لها للتأمين والتطمين. فما هو مقترح للنقاش هو موضوع واحد ووحيد: السوسيولوجيا ذاتها. وهكذا تبدو الأمور وكأن موضوع السوسيولوجيا هو السوسيولوجيا نفسها. وهكذا يدرك المرء أن السوسيولوجيا التي هي ، حسب دركايم وباريتو، طب المجتمع هي مريضة ويختلف أولائك الذين يقدمون أنفسهم كأطباء في التشخيص وفي وصفة العلاج. ما يتردد هوأن السوسيولوجية العربية لا وجود لها أو هي موجودة وجودا ضعيفا أو وجودا تعيسا أو هي تتظاهر بالوجود. أما ما هو موجود فعليا وماديا الكتب مثلا فهو لا يعدو أن يكون من النصوص النمطية الموجهة إلى الطلبة أو مما يُسمى إزادراء "بـ " المؤلفات المترجمة" ولهذا السبب يتكوَن لدى قارئي هذه "الانتاجات" انطباع واضح مفاده أنهم قرأوا "هذا" في الأدبيات الغربية وعلى كل حال فعادة ما يكون يسيرا تحديد المصادر الأصلية.

وفي الغرب عموما وفي فرنسا مثلا ما أكثر "المداخل" و"التمهيدات" وقد أخذت في المدة الاخيرة طابعا "تكراريا" واضحا. هذه الوضعية من الحيرة والارتباك التي تعيشها المادة تفتح المجال واسعا للسجال والجدل. هذه هي وضعية البدايات " كان السوسيولوجيون، بدءا من العام 1830، يتقاتلون حول غايات علمهم وحول دور السوسيولوجي. وكانوا يتساءلون إن كان يجب القيام بالبحث الاجتماعي الإمبريقي أو انتاج معلومات، الكشف عن ما هو خفي وإظهار للعلن أو تحليل الكلمات والأشياء وفتح المجال للفاعلين الاجتماعيين لاستنتاج الدروس والعبر وتسخيرها للاستعمالات الاجتماعية التي يريدون.

من جانب اخر من ذات الفصل يشير المؤلف أن معرفة المؤسسين لهي ضرورية لفهم النصوص السوسيولوجية المعاصرة. فمن جهة، وكما يقول "لزار سفيلد"، "فإنه لا يمكن فهم إتجاهات السوسيولوجيا الراهنة إلا بالرجوع إلى تاريخها" (GUERID,2013, p 164 ومن جهة أخرى ينبغي أن نقتنع "أن مقالا يُكتب اليوم هو يحمل في طياته وبدرجات متفاوتة مائة سنة من النصوص والتقاليد السوسيولوجية" .

وحسبه فان هذه النصوص تحمل دائما أفكار ومبادئ و مفهومات هي من وضع الآباء المؤسسين ولا تستطيع السوسيولوجيا اليوم أن تستغني عنها: طبقة، أيديولوجية، أسلوب

وعلاقات إنتاج، بنيات تحتية وبنيات فوقية، النموذج المثالي، البيروقراطية، العقلانية، الأنوميا، التضامن الميكانيكي والتضامن العضوي، وعي جمعي، رواسب، مشتقات الخ. ويذهب الأنثروبولوجي الكبير "جورج بلنديي" إلى أبعد الحدود عندما يصرح بأنه لا جديد تحت شمس السوسيولوجيا: " أن نقرأ "دركايم" اليوم يعني أننا نعطي لأنفسنا انطباعا مزعجا بأن العلوم الإجتماعية لم تتقدم التقدم الذي نعتقد وأن النجاحات الأخيرة التي تمت في أجواء من الضجيج هي في معظمها ناجمة عن التسرع أو عن إسرار في إخفاء الاستعارات وراء مصطلحات جديدة(GUERID,2013, p 171) ومن جهته، يرى "باسرون" عند نهاية القرن التاسع عشر " أن عناصر الموقف السوسيولوجي جديد وهي تعبّر عن نفسها في تنظيرات مرتبطة بمناهج معالجة المعطيات (...) و هكذا برزت وتوطدت" الإطارات المنهجية لكل المقاربات البحثية التي هي ممارسة اليوم". ثم يضيف: " لا وجود إلاّ لعدد قليل من المفهومات التي وضعت في تلك المرحلة (...) التي ليس لها حضور اليوم والتي هي ليست قابلة للاستعمال في حقل المسائل الوصفية التي هي وجهة السوسيولوجي المعاصر". (GUERID,2013, p177)

وحول مسألة العلاقة بالمؤسسين يبدو موقف "شازيل" Chazel مثيرا للاستغراب. فهو يلح في كتابه، " في أسس السوسيولوجيا" (2000) وعلى الصفحة الرابعة من الغلاف حول أمر هو ، في الحقيقة ، من تحصيل حاصل: "إنّ إعتبار وتقدير "الكلاسكيين" ليس معناه أنّه يستحيل تجاوزهم وإنما معناه ببساطة الإعتقاد أنه بوسعهم منح إمكانيات وموارد لصالح النظرية السوسيولوجية وهي تتشكل". وفي نهاية تقديم كتابه فهو يُبيّن عن حذر نعتقد أنّه بدون جدوى. "لا يتعارض إلحاحا على "الكلاسكيين" إطلاقا مع انشغالنا في تحديد المهام الراهنة أو حتى المستقبلية للنظرية السوسيولوجية".

ويبدو أنه لا يمكن فصل العلاقة بالمؤسسين بمسألة التراكبية (cumlativité) التي هي مصدر انقسام بين السوسيولوجيين. فمثلا يوحي عنوان كتاب "أرون" "مراحل الفكر السوسيولوجي" بفكرة تتابع بين مراحل تكون اللاحقة في تطور عن السابقة لكن المحتوى هو واقع آخر تماما. فهو قد درس كل مفكر لنفسه وإقترح في بعض المرات محاولات مقارنة لكن القارئ لا يشعر برغبة مفكر من المفكرين المدروسين في الإعتماد على سابقة ليذهب إلى ما هو أبعد. وفي هذا الصدد يلاحظ "بودون"، عن حق، أن الفكر السوسيولوجي الذي يذكره العنوان قد إنفجر (...) في سلسلة متقطعة من الأعمال الفردية منظور إليها ككليات (Totalités) مغلقة والتي لا نرى أنها تشكل مراحل مسيرة ما". وفي الواقع فإنّ "بودون" نفسه يجد صعوبة في التفكير حول مسألة التراكبية وهو يلتحق ، في نهاية المطاف ، موقفا غامضا

وجزئيا. "من المسلم به أن تطورات قد حدثت في حقل النظرية السوسيولوجية وفي بعض الميادين فإن البحث السوسيولوجي يبدو وأنه تراكميا" .

يبدأ "بيكينو" Pequignot و "تريبيي" Tripier الفصل الأول من كتابهما "أسس السوسيولوجيا" (2000) كالتالي: " إنّ تاريخ السوسيولولوجيا كما كتبه السوسيولوجيون لهو متعدد الاتجاهات". ثم يستشهدان بـ "باسرون" لإنكار كل تراكميه. فـ"باسرون" يقول: "إنه لا يمكن للسوسيولوجيا أن تأخذ شكل معرفة تراكمية أي معرفة يكون فيها "برادجم" نظري منظما للمعارف المتراكمة".

يذكرنا البروفسور جمال غريد في ختام هذا الفصل أن السوسيولوجيا قد اصطدمت في بداياتها بصعوبات جمَة في طريق تشكلها وخصوصا في طريق قبولها والاعتراف بها. ففي البدء كان التردد في اختبار التسمية النهائية من بين هذه التسميات : فيزياء اجتماعية، فيزيولوجية اجتماعية، علم اجتماعي أو علوم اجتماعية. وأخيرا أتى "كونت" واقترح بدون حماس (في العام 1839) مصطلح سوسيولوجيا. هو كان يفضل مصطلح فيزياء اجتماعية غير أن العالم البلجيكي "أدولف كيتلي" قد سبقه في تسمية العلم الذي أسسه بهذا الاسم: الدراسة الإحصائية للساكنة الإنسانية. وقد اصطدم الوافد الجديد مباشرة بالرفض. لم ير المفكرون ما عسى أن تأتي به السوسيولوجيا من جديد، وأن تقول ما لم تستطع قوله العلوم القائمة وبخاصة الفلسفة والأدب (الرواية أساسا) أو ما ليس في مقدورها قوله مستقبلا. وبما أنها لا تنتمي لا إلى الثقافة العلمية ولا إلى الثقافة الأدبية فإن السوسيولوجيا قد مثلت وجسَدت ، حسب "لبني" Lepenies ثقافة ثالثة.

4_إشراق وبؤس السوسيولوجيا :

في ثنايا سادس فصل من الكتاب المعنون بـ " إشراق وبؤس السوسيولوجيا" طرح المؤلف سؤال في غاية في الإثارة يقول فيه ما الغرض من السوسيولوجيا؟ ليجيب بكثير من التحليل أن الممارسون الأكثر تجربة وصلوا إلى قناعة مفادها أن السوسيولوجيا لا يمكنها أن تكون مهنة مستقلة وإنما ينبغي أن تكون إضافة من الثقافة والإنسانية لصالح مهن أخرى.

يقول"ألبرتو مرتينوتي" Alberto Martinotti أنه من الممكن أن يكون للسوسيولوجيا محتوى ثوريا للغاية (...) بسبب تأثيرها "التفجيري" في تبديد الأوهام. إن نشر معطيات حقيقية لمن شأنه أن يمثل ثورة في المجتمع المقهور.

إن السوسيولوجيا التي هي علم الأحداث الاجتماعية تمثل هي نفسها حدثا اجتماعيا. ولذا فليس من الممكن فهمها خارج السياقات التي رأت النور فيها والتي هي جزء لا يتجزأ منها. وليس من الممكن فهم العصر الذهبي الذي عرفته في الستينات والسبعينات من القرن الماضي خارج الأحداث التاريخية الكبرى التي هزّت العالم في تلك المرحلة. وفي نفس الإطار

فإن تراجعها ليس سوى جزء من تراجع أعم، هو تراجع ما كان يسمى بقوى وأفكار التحرر والرقي.

تبقى سنوات الستين والسبعين من القرن الماضي كالسنوات التي مارس فيها "معسكر التقدم" (اليسار الغربي، العالم الاشتراكي وبلدان العالم الثالث "التقدمية") هيمنة كبيرة وبخاصة على المستوى الثقافي. وقد سارت أحداث إستراتيجية عظيمة في إتجاه هذه الهيمنة وفي تدعيمها. يكفي أن نذكر يقول صاحب الكتاب إنتصار الفيتناميين والثورة الثقافية الصينية الكبرى ونجاحات حركات التحرر في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية القوة السياسية والسيادة الثقافية لليسار في أوروبا، الحركات الشبانية في أمريكا (الهيبز، وود ستوك، مقاومة الحرب الفيتنامية)، انتفاضات الطلبة في ربيع 1968 (في فرنسا وإيطاليا وألمانيا واليابان وكاليفورنيا والمكسيك) هي كانت السنوات التي دخلت فيها الشبيبة وبخاصة الشبيبة الطلابية المسرح الاجتماعي والسياسي واعتلى فيها زعماء من نوع جديد عرش "القيادة الفكرية والأخلاقية".

3. أفول السوسيولوجيا:

عاشت السوسيولوجيا سنوات التألق والمجد في الستينات والسبعينات من القرن الماضي أما بداية من الثمانينات فقد تراجع نفوذها وأفل نجمها. وقد طرح مؤلفا "القاموس النقدي للسوسيولوجيا" "بودون" Boudon و"بوريكو" Bourricaud هذه المسألة في التوطئة وهما يعتقدان أن هذا التراجع يعود إلى عاملين إثنين. يرجع الأول إلى مسؤولية السوسيولوجيين أنفسهم والثاني إلى الظروف التي تغيّرت. وينتقد المؤلفان الطموحات المفرطة للسوسيوجيين الذين يتقمّصون أشكالا مختلفة، شكل المفكر الذي يريد أن يقول كلمته في كل شيء والذي ينعته "فيبر" بالنبي، شكل العالم الذي يريد أن يكون على قدم مساواة مع العلماء الآخرين وشكل مستشار الأمير. ومن جهة أخرى فإن الأزمنة ذاتها قد تغيّرت وقد أطاحت بالآمال التي أفرزها النمو في السنوات 1940-1970. "وخلال السنوات السبعين وبينما كانت الأوهام في طريق التبخّر، أضاعت السوسيولوجيا التي ربما قد ساهمت في تغذية هذه الأوهام، الكثير من الاعتبار والنفوذ. وقد وصلت الحال اليوم إلى درجة أن مكانة السوسيولوجيا قد تدهورت بصفة عميقة بفعل سلسلة من الأزمات الداخلية وبفعل الشك الذي صارت تثيره (GUERID,2013, p172)

بعد سنوات الحماس والتألق (الستينات والسبعينات) أتى زمن الواقعية ونلاحظ أن "بودون" الذي يتذكر موقف "دركايم" الذي أشرنا إليه سابقا يعلن عن ابتهاجه بهذه العودة إلى الجدية وإلى الزهد العلميين: " رجعنا اليوم إلى تعددية تتلاءم أكثر مع تقاليد مادّتنا. نحن بصدد سوسيولوجيا أكثر هدوءًا وقد انفلتت أكثر من النزوات الأيديولوجيا ومن الأوهام" .

قد يقول البعض إن السوسيولوجيا قد بلغت سن النضج أو حتى سن الرشد. أما "موريس جودليي" Maurice Godelier(1934) فقد فضل التحدث، بالنسبة للأنثروبولوجية والعلوم الإجتماعية عموما، عن مرحلة انتقالية. فهو يطرح في كتاب صدر العام 2007 "في أصول العلوم الإنسانية" هذا السؤال: هل تمثل هذه النقاشات وهذه التناقضات وهذه "التفككات" التي تهز معسكر الأنثروبولوجيا ومعسكر العلوم الاجتماعية الأخرى إشارات إلى قرب أفولها (...) إلى قرب وفاتها المعلنة؟ أو على العكس من ذلك هذه أدلّة غير مباشرة على أن الأنثروبولوجيا (والعلوم الإجتماعية الأخرى) تمرّ بصفة تناقضية وصاخبة ولكن بطريقة عادية تماما مرحلة إنتقالية هي الآن بصدد الخروج منها وهي قد اكتسبت حسا نقديا كبيرا بالنسبة لمناهجها وحدودها وصرامة تحليلية أمتن ؟ " إن وجهة نظر" جودليي" لهي في غاية الوضوح: إن أزمة الأنثروبولوجيا والعلوم الإجتماعية الأخرى لهي "ممرّ لا بدّ منه في طريق إعادة بناءها على مستوى من الصرامة ومن اليقظة النقدية لم يكن موجودا في المراحل السابقة من تطورها".

من المسلم به أن النظرة إلى السوسيولوجيا والسوسيولوجيين ليست اليوم جيّدة. فهذا العلم هو بمثابة النظرية الهدامة. وصار الناس يتذكّرون ويتبنّون التقييم الإزدرائي الذي أطلقه "بندتو كروشيي" Benedetto Croce (1866–1952) حول هذه العلم " المعاق والإعتباطي والمفكك". هو إذن التراجع ففي مقال موثق "صعود وسقوط مهنة" نشرته الأسبوعية الإيطالية الشهيرة "لسيريسو" L'Espresso (26 أوت 1979) يجمع الكاتب "فبريسيو دنتيشي"Fabrozio Dentice إعتمادا على سوسيولوجيين كبار، كل المآخذ التي هي في أساس رفض السوسيولوجيا

وفي زاوية من زوايا ذات الفصل أثار المؤلف النقاش حول مسالة احتضان الشارع للسوسيولوجيا مشيرا انه "... بالرغم من إنكار وجودها كعلم وإعتبارها ازدراءً كمرحلة "ما قبل توسيدية" للتاريخ فإن السوسيولوجيا قد نجحت في تجنيد الشارع الغربي. ففي كل أرجاء عالمنا الواسع شنّ الشبان عددا لا يُحصى من الإنتفاضات: في الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا وفرنسا واليابان... وقد تمخضت هذه الحركات الجديدة عن بروز قادة هم أيضا جدد لا هُم قادة أحزاب سياسية يسارية ولا هُم زعماء نقابات" .

ويواصل القول انه غالبا ما يُلاحظ سوسيولوجيون على رأس هذه الحركات، هي حالة "رودي دوتشكو" Rudi Dutscheke(1940–1979) في ألمانيا وهو الذي ترأس الحركة الطلابية القوية "س.د.س"SDS "دوتشكو" هو منشق أتى من ألمانيا الشرقية وكردة فعل ضد الستابينية التي عاشها فهو قد تبنّى موقفا إلى الفوضوية أقرب، هي أيضا حالة السوسيولوجي "رناتو كورشيو"Renato Curcio (1941) في إيطاليا وهو الذي أسس بمعية "ألبرتو فراننشيسكيني" Alberto Francescini الأولوية الحمراء في العام 1970. هي أخيرا حالة

"دنيال كون بنديت" Daniel Cohn –Bendit(1946) في فرنسا وهو الذي أسس حركة الثاني والعشرين من مارس (1968) وهي حركة إباحية شاركت بصفة فعالة في تفجير ماي الطلاب في هذا البلد، وكما كان منتظرا فإن هؤلاء القادة السوسيولوجيين يبدأوون بنقد السوسيولوجيا والتشهير بها، وهكذا كتب "كون بنديت" وأصحابه في شهر مارس 1968 نصا عنوانه "لماذا السوسيولوجيون؟" تظهر فيه الموضوعات التي سيتعرض إليها الناس لاحقا وبخاصة موضوع تواجد السوسيولوجيين في خدمة رأس المال والدولة.

يجوز القول انطلاقا مما سبق أن ما يبدو تراجعا للسوسيولوجيا ما هو، في حقيقة الأمر، سوى السوسيولوجيا بدون غطاء ورباعية اليسار أي السوسيولوجيا كنظرية وممارسة علمية لا غير، ولهذا فإنّ السوسيولوجيا مطالبة الآن بالبرهنة على ما تستطيع وتحسن فعلها وتحت مسؤوليتها هي دون سواها بعيدا عن كل غطاء سياسي، هذا رجوع الأمور إلى طبيعتها وقد يكون من المستحسن أن تعود السوسيولوجيا إلى الصف وأن تشتغل كعلم كسائد العلوم شريطة أن لا تمنع من الاشتغال كسائر العلوم كما كان يردد بورديو: وفي هذا الوقت وبهذه الشروط يصبح من الممكن التفكير وإعادة التفكير حول السوسيولوجيا.

هذه التوضيحات هي على جانب كبير من الأهمية لأن شغلنا الشاغل يؤكد الكاتب في هذا المجال هو مسألة دخولنا الناجح إلى السوسيولوجيا وبصفة أدق فإن السؤال المطروح هو: إلى أين نحن داخلون بالضبط إذ تتعالى اليوم أصوات من كل الجهات تندد بالسوسيولوجية الموجودة وتتهمها بالإفلاس والإخفاق"(GUERID,2013, p179)

وفي الأخير يخلص المؤلف الى نتيجة مفادها أن السوسيولوجيا والمادية التاريخية(حسب ارون) قد نشأتا في نفس الظروف وعلى وجه التحديد من الهزات التي أحدثتها الثورتان الصناعية والسياسية، أي عند آلام ولادة العالم الجديد، السؤال الوجيه عندنا هو: هل أدّت التحولات العميقة التي عرفتها بعض بلدان العالم الثالث إلى إنتاج خطابات جديدة أم اكتفت هذه البلدان، كما كانت الحال في مجالات أخرى، العمل بما أنتجه الآخرون، وفي مجال السوسيولوجيا يجوز التأكيد أن ثلاث محاولات للدخول إلى السوسيولوجيا قد رأت النور في الجزائر والعالم العربي.

3- الأشكال البائسة الثلاث في الدخول إلى السوسيولوجيا حالتا مصر والجزائر:

في أخر فصل من هذا المؤلف المُعنون بـ"الدخول إلى السوسيولوجيا... الأشكال البائسة الثلاث" ، يضعنا المؤلف أمام ثلاث محاولات للدخول إلى السوسيولوجيا في كل من الجزائر والعالم العربي.

الدخول الأول الأهم والأكثر ممارسة وهو لا يرى أي مشكل على الإطلاق، هذا هو الاتجاه الكوني الذي يقول إنه أخذ في الحسبان حركة التاريخ وفي الدرجة الأولى العملية التي لا ترد في طريق العولمة والتعريب. نحن ندخل إلى السوسيولوجيا الموجودة فعلا والسائدة بدون أن نطرح أسئلة على أنفسنا لأنه لا مجال لطرحها. نحن لا نريد أن نبقى على هامش التاريخ، وتدعيما لهذه الأطروحة يذكر المفكرون الكونيون بعبارة ماركس: "تبيّن البلدان الأكثر تقدما للأخرى الطريق الذي يجب إتباعه".(GUERID,2013, p171)

الدخول الثاني يريد أن يصل إلى سوسيولوجيا خصوصية إما لأننا لا نقبل ظلم الغرب ورفضه الاعتراف وإما لأننا نعتبر أننا لسنا بحاجة لجلب سلعة من الخارج ونحن نتوفر على أحسن منها، أليس ابن خلدون هو مبتكر السوسيولوجيا؟

الدخول الثالث هو محاولة للاهتداء إلى طريق ثالث أخذ تسمية "سوسيولوجيا التنمية". وقد ظهرت هذه الأخيرة في الغرب بسبب صعوبة السوسيولوجيا الكلاسيكية في فهم وقائع غير غربية بما أن هذه السوسيولوجيا تبدو عاجزة خارج نطاقها الإجتماعي والثقافي. لماذا لا نفكر في سوسيولوجيا أخرى تكون قادرة على مقاربة وفهم وقائع خاصة بالمجتمعات النامية، أما إسمها فهو يفرض نفسه: سوسيولوجيا التنمية.

لم تسفر الأشكال الثلاثة للدخول إلى السوسيولوجيا في الجزائر والعالم العربي –حسب جمال غريد –على نتائج مُرضية، " فالكونية " بسبب تعنّتها في إعطاء الأولوية لمفاهيم أفرزت عنها وقائع الآخرين تبدو وكأنها لم تذهب أبعد من تركيب سوسيولوجيا بدون مجتمع، وعلى العكس من ذلك فإن "الخصوصية" لم تكن تنظر إلا إلى المجتمع وخصوصياته الثقافية أساسا ولم يكن هدفها في دراسة هذا المجتمع وإنما في الدفاع عنه كما هو بدون تغيير. أما سوسيولوجية التنمية فقد انتهت ب"الإنطفاء" – حسب تعبيره– لأنها لم تتمكن لا من تأسيس نفسها كمقاربة أصيلة ولا من المساعدة الفعالة في عملية التنمية (GUERID,2013, p 177)

يؤكد الكاتب على أن هذه المحاولات بدأت جميعها في جو من التفاؤل والحماس وانتهت جميعها في جو من اللامبالاة في ملتقى "نحو علم اجتماع عربي" (تونس– يناير 1985)، كما أطلق على هذه الوضعية تسمية "سوسيولوجيات" بدون مجتمع بينما ما يزال هذا المجتمع الناقص التحليل (بوك) يبحث عن سوسيولوجيته، قال "أرون" في الثلاثينات أنا أكثر ما كانت تفتقر إليه السوسيولوجيا (الفرنسية) هم السوسيولوجيون أنفسهم وما يفتقر إليه السوسيولوجيون العرب الذين أصبحوا كثّرهي السوسيولوجية ذاتها. ويعتقد الكاتب أن العجز في تأسيس سوسيولوجيا تكون من صميم المجتمع ليس سوى جزء من عجز أكبر: عجز النخب في تصور شيء آخر يتجاوز الإعادة "الببغائية" لتجارب الآخرين. ويرجع هذا الإخفاق إلى إنفصال هذه

النخب عن الجماهير الشعبية الواسعة ورفضها التعامل معها بجدية، إن المشاكل الجديرة بالإهتمام بالنسبة لرجل السياسة وللإطار المسير ورجل العلم هي مشاكل الفئات الحضرية المتوسطة التي تصبح في خطاباتهم مشاكل المجتمع كله. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأقلية لا تكتفي بممارسة هيمنتها على الأغلبية، بل هي تعمل على دفعها إلى الهامش اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

في عنصر فرعي من هذا الفصل عنون بـ الدخول عبر بوابة الكونية الأوروبية يستطرد المؤلف القول أنّ "إمانيال فالرشتاين" Wallerstein Immanuel هو من بين المفكرين القلائل الذين اهتموا بفكرة الكونية وسوف نستعمل في هذا البحث التمييز الذي اقترحه بين الكونية الأوروبية والكونية، ففي مقال نشره سنة 1982. فهو يّعرف الكونية كذلك "الافتراض في وجود قوانين كونية سارية المفعول في المجتمع الإنساني كله أو بصفة أدق في جميع المجتمعات الإنسانية" وفي نفس النص فهو يقول إنّ هدف العلوم الاجتماعية الموجودة قد يكون "الصياغة الواضحة لهذه القوانين الكونية"، ويوضح أن "محدود يتنافى في صياغة هذه القوانين" راجعة إلى جهلها الراهن" ثم يبيّن أن "مشروع العلم الاجتماعي هو مجهود في اتجاه تقليص مساحة هذا الجهل" أما الهدف الأخير فهو في جعل التدخل السياسي في سير هذه القوانين ممكنا وفعالا.

وفي العام 2008 فهو يكتب كتابا حول "الكونية الأوروبية" يبيّن فيه "أن ما يُسمى اليوم خطأ الكونية ما هو سوى وجهة نظر تستهدف تبرير السيادة التي يمارسها الغرب أو العالم الأوروبي منذ أربعة أو خمسة قرون على النظام العالمي. وتعكس هذه الكونية نظرة إلى العالم ومصالح خاصة ولهذا السبب فأنا أصفها بـ "الكونية الأوروبية(GUERID,2013, p172) فأما أنا فأرافع من أجل كونية تكون حقا "كونية" ولا تكون مجرد خطاب بلاغي في يد السلطة".

وفي كتاب صدر في العام 2010 (GUERID,2013, p203)، تدافع الأنثروبولوجية الإيطالية "أنَامريا ريفرا" Anna maria Rivera عن أطروحة مشابهة، فهي تقوم بنقد صارم للكونية الأوروبية عبر مثالين إثنين، مثال "المركزية الإثنية" ومثال "الإسلاموفوبيا" وتنتقد بشدة انحرافاتها فهي تتحدث عن هذه الكونية كـ "استكفاء ثقافي" وتنادي بـ "كونية جديدة متعددة المراكز والثقافات".

رأينا أن "ماكس فيبر" في كتابه الشهير "الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية" يؤيد الفكرة القائلة بأن ثمّة ظواهر تعود إلى العبقرية الأوروبية وحدها دون سواها وأنه لا وجود لمثيلاتها في الحضارات الأخرى، إذا كانت هذه الأطروحة صحيحة فإنه يجب ويكفي حتى نكون في صميم عصرنا وعالمنا أن نتيّنى الإكتشافات والابتكارات الغربية وأن نضعها حيّز التطبيق في

بلداننا، المشكلة هي أننا جرّبنا هذا الموقف اللانقدي في تبني ظواهر هي أيضا من صنع العبقرية الأوروبية كالتصنيع والمؤسسة والديموقراطية والإشتراكية. غير أننا لم نفلح في الوصول إلى نتائج هي شبيهة بالنتائج التي وصل إليها الغرب.

ويرجع سبب هذا الإخفاق حسب الباحث الأمريكي– الجنوبي "سونكال" O.Sunkel إلى الكيفية التي إتبعناها والتي هي عبارة عن تقليد أعمى للآخرين، ويوضح الكاتب أنّ هذه الكيفية تشجع "على تكرار وإعادة المسلك الذي سلكته سابقا البلدان المصنعة" وإن أردنا أن نستعمل عبارة "توران" فإننا نقول بأن النتائج التي وصلنا إليها لم تكن من "عمل المجتمع حول نفسه" ومن الممكن أن نقترح تفسيرا آخر: تمثل الظواهر المذكورة (التصنيع، المؤسسة، الديموقراطية إلخ). عناصر لمجموعة ثقافية لا يمكن فصلها لأن المجموعة التي تعطيها معناها هي الأهم وليست الأجزاء التي تكونها.

وفي هذه الظروف ثمّة حل واحد للنجاة: القبول بكل شيء أي بالتثقيف الكامل وهذا يعني التخلّي الكامل عن الثقافة الأصلية والتبني الواعي، الإرادي، النشط والشامل لثقافة الآخر، هذا هو حل "التغريب" الذي تنادي به نخب "الجنوب" التي هي جزء لا يتجزأ من الحداثة الغربية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: لماذا التخلّي عن ثقافتنا والذوبان في ثقافة الآخر؟ لأنها أكثر تطورا؟ لأنها أكثر تقدما؟ لأن العيش فيها أرغد؟ ولماذا، والحالة هذه، لا نعمل من أجل "تطوير" ثقافتنا ومجتمعنا ولغتنا؟ مثل هذا الكلام يذكر بالفكرة الشائعة لكن غير المؤسسة عندنا يقول المؤلف والقائلة بضرورة مواصلة تدريس العلوم باللغة الفرنسية لأن اللغة العربية بسبب تأخرها الراهن لا تستطيع ذلك. ولكن كيف يمكن تطوير لغة ما إن لم تُقحم في التعليم عموما وتعليم العلوم خصوصا؟ أليس هو ما حدث في بلدان أخرى مثلا مع اللغة الصينية ومع اللغة العبرية؟ وفي الحقيقة فإنّ مشروع النخبة التحديثية في التخلي عن ثقافة "متخلفة" وتبني ثقافة "متطورة لن يُكتب له النجاح لا في الجزائر ولا في البلدان العربية –الإسلامية الأخرى لسبب أساسي وهو أن الأغلبيات الاجتماعية والثقافية لن تقبل بذلك وهي لا تترك أية مناسبة تمرّ دون أن تعلن صراحة عن رفضها. وفي الواقع فقد جُربت، في الحقبة الإستعمارية، لكن على نطاق محدود محاولة تثقيفية غير أنها باءت بالفشل، النتيجة الحقيقية اليوم هي أنّ هذه النخب تشعر بضيق شديد في مجتمعاتها الأصلية وينتهي بها المقام إلى الهجرة نحو فضاءات تُحسُّ فيها أنها في "تناغم المحيطات الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية للبلدان التي اختارتها أي على العلوم البلدان الغربية.

بخصوص المثال المصري يذكر المؤلف أن مصر قد تعرّفت بصفة مبكرة على السوسيولوجيا في شكلها الدركايمي ففي العام 1913 ناقش منصور فهمي أطروحة الدكتوراه تحت إشراف الدركايمي "لفي برول" Levy–Bruhl حول وضعية المرأة في الإسلام". وفي

العام 1918 ناقش "طه حسين" دكتوراه الجامعة حول "الفلسفة الاجتماعية" لابن خلدون، ومن الجدير بالذكر أن "طه حسين" كان يعمل بتأطير من "دركايم" نفسه ثم انتقل التأطير بعد وفاة هذا الأخير (1917) إلى تلميذه "سلستان بوجلي" Célestin Bouglé، وفي الوقت الذي كان فيه هذان الجامعيان المصريان يُعدان أطروحتهما كان الآباء، المؤسسون على قيد الحياة بل كانوا قد نشروا أو بصدد نشر أعمالهم الكبرى وقد أصدر "دركايم" "الأشكال الأولية للحياة الدينية" في العام 1912 و"باريتو" "مدخل للسوسيولوجيا العامة" في العام 1916، أما "فيبر" فقد بدأ في العام 1909 في كتابة ما سيصبح عمله الكبير "الاقتصاد والمجتمع" غير أن هذا المؤلف لم ير النور إلا في العام 1922 أي سنتين بعد رحيله (1920).

كانت معرفة السوسيولوجيا الدركايمية معرفة مباشرة إذ تكوّن جامعيون مصريون في الجامعة الفرنسية على يد دركايميين، فهم قد أعدوا أطروحاتهم تحت إشرافهم وترجموا إلى العربية بعض نصوصهم وذهبوا إلى حد تأسيس قسم في السوسيولوجيا في الجامعة المصرية سنة 1925، كانت الهيمنة الدركايمية إذن مطلقة على الأجيال الأولى من السوسيولوجيين المصريين، أشرنا أعلاه إلى "منصور فهمي" الذي كان أول مصري يحصل على دكتوراه في السوسيولوجيا. وينبغي أن نشير أيضا إلى أن "فوكوني" Fauconnet هو الذي كان قد أشرف على أطروحة "على عبد الواحد" الذي تعيّن على كرسي السوسيولوجيا وعلى دبلوم "عبد العزيز عزت" حول السوسيولوجيا عند "ابن خلدون" و"دركايم" (1937). ومن جهة أخرى فإن "على عبد الوافي" الذي يقول إنه دركايمي هو الذي أشرف على أطروحة الدكتوراه الأولى في مصر وقد أعدها "مصطفى الخشاب". أخيرا وفي العام 1950 قام "محمود قاسم" بترجمة "قواعد المنهج السوسيولوجي إلى اللغة العربية"

لماذا "دركايم" ؟ يجيب "ألان روسيون" Alain Roussillon_ لأن الاتجاه الدركايمي هو الذي كان يستجيب أحسن للطلب المصري في مجال السوسيولوجيا (...) إن السوسيولوجيا الدركايمية هي تأمّل حول التماسك الاجتماعي أي ما يجعل من كل مجتمع كُلاً متماسكا أثناء مدة تاريخية معينة".

لم تتمكن السوسيولوجيا الدركايمية بالرغم من الهيمنة التي كانت تمارسها من أن تنتج أبحاثا أكيدة ولا أن تتأصل وأحسن مثال على ذلك هو الموقف "الكاريكتوري" للدركايمي "عبد الواحد وافي"، هذا السوسيولوجي الذي ينتسب إلى "دركايم" يبدو وأنه يعتقد أن موضوع السوسيولوجيا هو السوسيولوجيا الدركايمية. وبعد مرور بضعة عقود ها هي "الكونية الانجلو – سكسونية" تحل محل "الكونية الفرنسية" في المجال السوسيولوجي. يبقى الاعتراف بأن الكونيتين معا لم تنجحا في دفع السوسيولوجيين إلى الاهتمام بالأحداث الاجتماعية العينية في

بلادهم، كانت هذه هي الحال في البداية وهو ما يلاحظه السوسيولوجي المصري "محمد الجوهري" "تبنّى الأطروحات الأولى في الماستر والدكتوراه التي نوقشت في الجامعات المصرية توجها نظريا صرفا أو تاريخيا وغضت الطرف عن الواقع وعن المشاكل الساخنة التي كانت مطروحة على المجتمع المصري بين 1930 و1940".

أما بخصوص الجزائر استعرض المؤلف حقائق حول كيفية ولوج النخبة الجزائرية التي تكونت في المدرسة الإستعمارية أو في الجامعة الوطنية في العقدين الأولين من الإستقلال بوابة الكونية وقد تبنّت الوضعية الماركسية، الألتوسيرية، وبالنسبة لهذا الاتجاه فإن السوسيولوجيا كانت أولا وقبل كل شيء ابستمولوجيا ولذا فإن اهتماماتها قد تركزت أساسا على العلاقة علم، أيديولوجيا وليس على العلاقة علم مجتمع، وفي هذا الاتجاه كان يشتغل مركز الدراسات والأبحاث الماركسية اللينية التابع لدار المعلمين العليا بالجزائر العاصمة وكانت الملتقيات التي نظمها خلال السنتين 1967-1968 و1969-1969 كالنسخة المطابقة للأصل للملتقى الذي بادر به ألتوسر من قبل (1965) في دار المعلمين العليا بباريس، فكان الموضوع واحدا بالنسبة للتجربتين الاثنتين وهو قراءة رأس المال، أما همزة الوصل بينهما قد تمثلت في التلميذ الأول لـ"ألتوسير"، "إتيان باليبار"Etienne Balibar الذي درّس الفلسفة في جامعة الجزائر في إطار تطوعه للخدمة الوطنية (1965-1967).

العلم والثورة بالنسبة للسوسيلوجية الجزائرية هما أمران مترادفان ("فكر "ماركس" عظيم لأنه صحيح" ، لنين) والعلم والأيديولوجيا أمران متناقضان، الأيديولوجيا هي مجال الأوهام والأخطاء والجهل والخداع، غير أنه ينبغي أن لا نخطأ لأن هذا التنظير الكبير ليس مجرد انحراف نظري وإنما هو مسعى سياسي لا يعلن عن نفسه لسببين اثنين: الأول هو أن الخطاب حول المجتمع صار حكرا على السلطة السياسية والثاني هو أنه على غرار المعلم "ألتوسير" يجب البدء من البداية وبالنسبة لهؤلاء جميعا البداية هي القراءة الصارمة لرأس المال لأنها هي التي تشكل النقد الأكبر راديكالية للخطابات حول المجتمع الصادرة عن السلطات السياسية جميعا بما فيها الأحزاب الشيوعية "السوفياتية" هذه القراءة هي، عند التحليل الأخير تجريد السلطات من كل أهلية كما أنها تسمح باكتشاف "قوانين" العمل الثوري والتحكم فيها.

ما ميز السوسيولوجيا العربية عموما والجزائرية على وجه التحديد هو استدعائها للماضي بشكل كبير كآلية تبرير للبرهنة على تفوق العرب أو على سبقهم في مجال الاكتشافات العلمية والتقنية.

بالإضافة إلى ما سماه المؤلف إلى اللجوء إلى ابن خلدون ، فحسبه يخضع استعمال "ابن خلدون" في الجزائر والعالم العربي إلى المسعى المذكور أنفا ، فلم يحدث، في هذه البلدان، أن كان مفكر محل دراسة واحتفاء كما كان "ابن خلدون"، ويستشهد بالقول انه في

يناير من العام 1962 انتظم، في القاهرة، مهرجان دولي ضخم هدفه هو الوقوف وقفه تقدير "لذلك الرجل الذي كان له الشرف العظيم في تأسيس السوسيولوجيا" (من تقديم الأعمال). وقد حمل القسم الذي يعالج فكر ابن خلدون السوسيولوجي هذا العنوان "ابن خلدون مؤسس السوسيولوجيا" وهو يضم خمس مداخلات، ثلاث منها تحمل نفس العنوان المذكور. وقد كانت لجنة تنظيم المهرجان قد قررت نصب تمثال تقديرا للسوسيولوجي وكلّفت الفيلسوف المصري "عبد الرحمان بدوي" بإعداد بيبليوغرافيا حول ابن خلدون، وقد تدشن التمثال وصدر الكتاب بمناسبة المهرجان. ومنذ هذا التاريخ لم تنس أية جامعة عربية تنظيم ملتقى حول ابن خلدون. وفي الجزائر فإن المركز الوطني للدراسات التاريخية التابع لرئاسة الجمهورية هو الذي نظم ملتقى دوليا كبيرا في العام 1978.

يعترف المؤلف أن اللجوء الكثيف لابن خلدون لهو ظاهرة حديثة العهد وهو يتزامن مع وصول البرجوازية الصغيرة الوطنية إلى السلطة في البلدان العربية ومع التطور الكبير الذي عرفته العلوم الاجتماعية في الغرب وتصديرها إلى بلدان الأطراف، وهو يتزامن أيضا مع انتشار الأفكار الماركسية في هذه البلدان، وقد كان هذا اللجوء أشد وضوحا في الجزائر لأن الأنتلجنسيا في هذا البلد لهي "مقطوعة أكثر من الأخرى عن التراث الفكري والعلمي العربي– الإسلامي

من جانب اخر تطرح سوسيولوجيا التنمية نفسها كخطاب وكفعل لصالح المجتمعات السائرة في طريق النمو، هذا صحيح بالنسبة للشكل الليبرالي الذي درسه "أندري جوندر فرانك" Gunder –Frank (GUERID, 2013, 235) بصفة وافية والذي لن نتعرض إليه هنا لأن تأثيراته في البلدان التي تهمنا كانت جد محدودة وهذا صحيح أيضا بالنسبة للشكل "التقدمي" الذي سوف نتوسع في دراسته في الصفحات اللاحقة.

اعتبر المؤلف أن سوسيولوجيا التنمية في الجزائر تظهر أساسا كمادة سياسية . وعلى هذه القاعدة فهي تنقسم إلى تيارين إثنين: يرى التيار الأول في إستراتيجية التنمية التي تشرف عليها الدولة مرحلة لا مناص منها في طريق الإشتراكية وقد سميت بـ "طور الديموقراطية الوطنية" أو با"الطريق اللارأسمالي للتنمية" وفي هذا الإطار ينبغي دعم ومساندة الإجراءات "التقدمية" التي تقوم بها السلطة السياسية والدفع بها إلى المزيد من الراديكالية، وقد وجد أنصار هذه الأطروحة أنفسهم إلى جانب السلطة في تطبيق "مهام التشييد الوطني" وبخاصة "الثورة الزراعية". أما التيار الثاني، فهو يرى في هذه السياسة شكلا من أشكال التطور الرأسمالي وفي الإجراءات المتخذة (التصنيع، الثورة الزراعية، تعميم التعليم) المهام التاريخية لكل بورجوازية.

يعترف الكاتب في آخر هذا الفصل بالقول أننا أمام وضعية خاصة، وضعية "سوسيولوجيات" بدون مجتمع بينما ما يزال هذا المجتمع الناقص التحليل (بوك) يبحث عن سوسيولوجيته، قال "أرون" في الثلاثينات أنا أكثر ما كانت تفتقر إليه السوسيولوجيا (الفرنسية) هم السوسيولوجيون أنفسهم وما يفتقر إليه السوسيولوجيون العرب الذين أصبحوا كثّرهي السوسيولوجية ذاتها. وفي الحقيقة فإن العجز في تأسيس سوسيولوجيا تكون من صميم المجتمع ليس سوى جزء من عجز أكبر: عجز النخب في تصور شيء آخر يتجاوز الإعادة "الببغائية" لتجارب الآخرين. ويرجع هذا الإخفاق إلى انفصال هذه النخب عن الجماهير الشعبية الواسعة ورفضها التعامل معها بجدية، إن المشاكل الجديرة بالاهتمام بالنسبة لرجل السياسة وللإطار المسير ورجل العلم هي مشاكل الفئات الحضرية المتوسطة التي تصبح في خطاباتهم مشاكل المجتمع كله. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأقلية لا تكتفي بممارسة هيمنتها على الأغلبية، بل هي تعمل على دفعها إلى الهامش اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

5. خاتمة:

لا بدّ أن نذكر – ختامًا– أننا تعمدتنا إغفال الكثير من التفاصيل في هذه القراءة المتواضعة لواحد من أهم الكتب السوسيولوجية من توقيع قامة من قامات السوسيلوجية في الجزائر والوطن العربي . اللافت أن هذا الكتاب يخضع لزوايا منهجية تصب في اتجاه الفهم والنقد وهذا ما يتضح في العلاقة بين فصل وأخر وكذا الامتدادات الضرورية للفهم بينها.

الكاتب قيّم وطرح وسائل العلم الاجتماعي وتحديدا السوسيولوجيا في مناهجه ومعارفه ومذاهبه المختلفة والمتباينة. فقبل أن يقدم جمال غريد مشروع قراءة جديدة للسوسيولوجيا عرج على مجموعة من العناصر التي تؤكد بأنه نظر إلى السوسويولوجيا في الوقت الراهن بأعين أخرى غير الأعين الغربية المعتادة وهدفه البعيد من خلال هذه المعرفة هو محاولة الإجابة عن سؤال جوهري طالما ارقه، لماذا يشعر سوسيولوجيو بلدان الجنوب دوما أنهم لا يجدون أنفسهم في هذه السوسيولوجيات إلا قليلا؟

قراءة جمال غريد المتأنية والمعادة تجلت عنها أربع أفكار أساسية. الأولى هي أن السوسيولوجيات هي حقا إنتاجات أوروبية وهي تنقسم إلى ثقافتين مركزيتين تعبران عن الطبقتين المركزيتين الإثنتين للمجتمع الجديد، البرجوازية والبروليتاريا.

الثانية هي أن هاتين الثقافتين قد وصلتا اليوم إلى مرحلة غير مسبوقة من التنوع والتباين إلى درجة أنهما صارتا عصية عن الاستعمال، ومن هنا يجوز التساؤل عن انتماءهما لنفس الكيان كما يتيسّر فهم عودة عدد من السوسيولوجيين إلى أحضان الآباء المؤسسين.

الثالثة وللأسباب المذكورة فلم يكن من المنتظر أن تتكلّل محاولات الدخول إلى السوسيولوجيا في بلدان الجنوب بالنجاح.

الفكرة الرابعة، والخلاصة، هي أن المخرج يبدو قائما في مقترح "فالرشتاين" الذي يدعو إلى تأسيس سوسيولوجية جديدة تأخذ في الحسبان مجمل التجارب لمجمل المجتمعات.

شدد الكاتب على أصول وانتماءات الأوروبية للسوسيولوجيا ولم يخف اصطدامه الدائم بتساؤل غير منتظر يتعلق بوحدة وعلمية هذا العلم. هذا التساؤل يقول انه عسَر من مهمته أكثر لأن مشروعه لم يكن في البداية سوى الاستناد إلى بعض الأفكار الواضحة حول دخولنا إلى السوسيولوجيا. ما يتبين عند الفحص الدقيق المتأني هو أن المشكل هو من جهة لا وجود للسوسيولوجيا واحدة وإنما الوجود لسوسيولوجيات متعددة وأن هذه السوسيولوجيا لهي في صراعات دائمة ومن جهة أخرى نجد في هذه السوسيولوجيات أشياء كثيرة ما عدا الصرامة والتجانس الذين يحق لنا انتظارهما في مادة علمية.

وفي نهاية المطاف يقول انه لا مناص من الاعتراف من أن السوسيولوجيا مازالت غامضة الحدود وعصية على التعريف. كما لا يوجد، في الوقت الراهن، حدث أو دليل يبشر بتلاق أو حتى بتقارب ممكن بين ممارسي السوسيولوجيا، ماهو موجود هي جهود واجتهادات فردية ترمي إلى جعل السوسيولوجيا قابلة للممارسة وهذا وضع يشبه إلى حد بعيد العقلنة بمعنى التحليل النفسي للكلمة.

وفي هذه الحالة فإنه يكون من الصعب أن نفهم مشروع بعض كبار السوسيولوجين الذين يعتقدون أن الحل يمر لا محالة عن طريق العودة إلى التقاليد الكلاسيكية الكبرى. بوزينو يحدد الثقة في القدامى الكبار و"بلنديبي" يلاحظ أن "الجدد" لا يفعلون شيئا آخر سوى إعادة ما قاله الآباء المؤسسون بطرق مختلفة وبلغة أخرى.

هذا يعني بوضوح أنه لا وجود لسوسيولوجية قوية أو حتى لسوسيولوجية "حقيقية" إلا في أعمال القدامى الكبار هذا أمر يبعث على الإستغراب إذ كان من المنتظر أمام تغير المجتمع والسوسيولوجيا أن يدعو سوسيولوجيون مجربون إلى التكثيف من البحوث العينية بغرض التعرف على المجتمع الجديد وبغرض تجديد السوسيولوجيا.أي مشروع يستهدف إعادة تأسيس السوسيولوجيا.

6. قائمة المراجع:

1. GUERID Djamel , (2013), ***L'entrée en sociologie – Les limites de L'universel Européen ,Implications concrètes dans le monde d'aujourd'hui***, (PUBLISUD éditions, Paris) .
2. GUERID Djamel, (2007), ***L'exception Algérienne – la modernisation à l'épreuve de la société***–,(casbah , édition Alger).

اقتباس الكاتب:

Cité in LECLERC G (1979) , ***L'observation de l'homme***. ***Une histoire des*** , Les seuil, enquêtes sociales, Paris, p166.
DURKHEIM E (1970), ***La science sociale et l'action*** , ***introduction et présentation de filloux*** JC, PUF, Paris, p.225.
FERRAROTTI F (2002), ***Lineamenti di storia del pensiero sociologico***, Donzelli Editore , ***Rome***, p.XXVI.
GUNDER –FRANK.A (1970), La ***développement du sous–développement en Amérique latine***, Maspéro, Paris.

LAZARSFELD P (1970) , ***Qu'est ce que la sociologie*** , Idées-Gallimard ,Paris , p 7 .
LACROIX B (1981) , ***Durkheim et le politique*** , Presses de la fondation nationale des sciences politiques , Paris , p 29.
NISBET R. A (1984) , ***La Tradition sociologique***, Paris, PUF,, p.15.
RIVERA A (2010), ***Les dérives de L'universalisme*** , ***Ethnocentrisme et islamophobie en France et en Italie***, La découverte ,Paris.
WALLERSTEIN I. (2008) , ***L'universalisme européen*** , Demopolis ,Paris .

السوسيولوجيا تبحث عن نفسها...! قراءة في كتاب "الدخول إلى السوسيولوجيا ...حدود الكونية الأوروبية " وتداعياتها الواقعية في عالم اليوم للبروفسور عالم الاجتماع جمال الدين غريد.